BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

صورة الذات والآخر في التراث المصري

رامي الجمل (رئيس قسم بمركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية):

نرحب بالحضور في الندوة الثالثة بعد المائة من ندوات منتدى الحوار في مكتبة الإسكندرية، محدثنا اليوم غني عن التعريف، فالدكتور إسحاق عبيد أستاذ من أعلام الدراسات التاريخية، لاسيما دراسات القرون الوسطى، ويعتبر الموضوع الذي سيتحدث فيه من الموضوعات المهمة، والموضوع بعنوان "صورة الذات والآخر في التراث المصري"، والأستاذ الدكتور إسحاق عبيد أستاذ التاريخ في كلية الآداب جامعة عين شمس، حصل على درجة الدكتوراة من جامعة نوتنجهام في المملكة المتحدة، وله مؤلفات عديدة من بينها "محاكم التفتيش" و"أوروبا في عصور الظلام"، و"الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية"، و"المدينة الفاضلة عبر التاريخ"، وغيرها، وهو أيضا أحد المترجمين الأجلاء الذين نعترف لهم بالفضل، وأدعوه ليتفضل بإلقاء كلمته.

إسحاق عبيد:

سوف أختصر أطروحتي حتى تسنح للحضور فرصة المداخلات والأسئلة حيث إنني أحب أن أستمع إلى الأسئلة لأنني شديد الاقتناع باستفادتي من قراءات الآخرين واطلاعاتهم.

في البداية أقول إن قصة الحضارة المصرية ملحمة شغلت من الزمن حيزًا لا يدانيه حيز آخر على وجه الأرض في فترة وصلت إلى خمسة آلاف عام، والحضارة في تعريفي منجز عقليّ تتبلور معالمها جيلا بعد جيل. وقد كان اكتشاف النار خطوة جبارة على درب الحضارة، كذلك كان الاهتداء إلى الزراعة، على أن ابتكار أبجدية يسجِّل بها الإنسان فعله الإنساني بغرض حفظه تراثا للأجيال من بعده يمثل تتويجا لمضمون الحضارة أهم من النار ومن الزراعة. ولنا أن نتصور ماذا كان سيكون حالنا اليوم بدون ذلك الابتكار؟ ومما يسجَّل لمصر والمصريين أنهم أول من ابتكر هذه الصيغة العبقرية منذ آلاف السنين، وعنهم نقلها الفينيقيون ثم اليونانيون حتى أصبح حوض البحر المتوسط

يدين لمصر بهذا الفضل العظيم، لقد محت مصر أمية حوض البحر المتوسط، وكانت الكتابة المصرية القديمة بخطوطها الثلاثة من هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية تتألف من حروف ساكنة وعلامات صورية وعلامات ذات دلالة صوتية وأخرى ذات دلالة معنوية، ولنا أن نتصور مدى العبقرية في صياغة لغة بهذه الدقة. وقد نقش الأجداد كتابتهم إما على الحجر أو على أوراق البردي أو قطع الفخار أو الألواح الخشبية. وعندما نُقشت الكلمة اليونانية القديمة LOGOS -وهي عند الدارسين ترادف العقل- قدر لها المصريون قدرها فأصبحت أشبه ما تكون برحلة الروح وتوأم الفعل الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان، فالكلمة هي الماضي والحاضر واستشراف المستقبل، إنها ضمير الأمة وعقلها الجمعي وهي أيضا أداة الغبطة وتبادل المشاعر الإنسانية النبيلة، وهي التي أقامت بحروفها قصور الحكمة ومتون الأهرام ومقطوعات الأسطورة وجداول الهندسة والفلك وأسرار الطب والتحنيط. ومن ينظر إلى خريطة مصر، يجد نفسه أمام نبتة من نباتات البردي حيث تظهر ساق النبات في امتداد وادي النيل وتكون الزهرة هي الدلتا، وفي ذلك يقول الدكتور جمال حمدان رحمه الله إنه سواء من حيث الموضع أو الموقع تشمل مصر مكانًا وسطًا بين خطوط العرض وبين المناطق الطبيعية وبين أقاليم الإنتاج وبين القارات والمحيطات وحتى بين الأجناس والسلالات والثقافات. إن المصريين أمة متعددة الجوانب والأبعاد والآفاق مما يثري الشخصية الإقليمية والتاريخية ويبرز عبقرية المكان وعبقرية الشخصية المصرية. والجميل أيضا أن شعب مصر أصيل وليس مهجنـــًا، فغالبية شعوب أوروبا مهجَّنة رومانية وأثينية وجرمانية وغيرها، أما الشعب المصري فهو شعب نقي السلالة تنطبق عليه كلمة "أوتوكتونس" التي تعني أنه لم تفد إلينا سلالات من مكان آخر، مع احتمالات الاختلاط البسيط مع سلالات إفريقية وآسيوية قد تمت في الألف الرابع قبل الميلاد أي قبل ظهور مينا موحد الوجهين القبلي والبحري، وعن هذا التجانس السكاني يقول الدكتور جمال حمدان والعالم الفرنسي فالوا في كتاب بعنوان الأجناس البشرية إن نهر النيل كان شرسًا غضوبـــًا قبل أن يروضه الإنسان المصري القديم، وإنه في وقت الفيضان كانت المياه تغمر البلاد وتدمر القرى والكفور وتملأ المنخفضات في حين أن الدلتا كانت في هذا العصر تتشعب إلى سبعة أفرع كانت تغرق بمياه الفيضان وتنتشر فيها الأحراش والمستنقعات، ولكن الإنسان المصري القديم لم يستسلم لهذا الإله الكريم الغاضب حابي فقدم له القرابين لعله يترفق بالوادي، ثم ذهب بمعوله وعرَّق جبينه سعيا إلى ترويضه، ولعلي هنا أختلف مع هيرودوت في قوله "مصر هبة النيل"، لأن مصر هبة عرق الإنسان المصري.

والجميل في مصر أنها لم تكن حضارة بنوة لأحد (affiliation)، وعلى حد تعبير الدكتور جمال حمدان عندما يقول: "المصري مخلوق نهري يضرب بجذوره في طين الوادي أشبه ما يكون بزهرة اللوتس وليس بتمساح النيل، قريته هي وطنه مهما يشقى فيها، ويشق عليه أن يهجر أرضه ولذا فإن

المصري من قديم الأزل يكره الغربة ويتعفف عما يسقط من موائد اللئام من شرق أو من غرب." ومن كلمات الدكتور ثروت عكاشة الصوفية متغزلاً في مصر "ثمة غاية للاستغراق ينتهي إليها من يرهف السمع لما هو عذب شجيّ يحلو في الآذان وقعه حين تسكن جوارحه إلا تلك التي بها يسمع فإذا هو يخال الأنغام رؤى والهمس أشباحا والأصوات أشخاصا وإذا دنيا المسموعات قد استحالت في سمعه دنيا مرئيات" ويذهب في قوله إلى أن المصري في عشقه لأرضه "مثل الحلاج في عشقه للذات الإلهية"، فالمصري كالمتصوف الجميل لو خاطب معبد الأقصر أو الكرنك أو الأهرام لتحدثت إليه الحجارة كأن بها روحًا عبر آلاف السنين.

إن التاريخ هو معلم الشعوب وسوف يندم من ليس له تاريخ، ولهذا نحن نفتخر ولا نتزيد. نحن نفتخر على أساس قوي وهو التاريخ المصري، والبعض لا يملك تاريخًا إلا منذ مائتي سنة وكانوا قبلاً كالبرابرة. وقد قسَّم المصري قديمًا الأرواح إلى قسمين؛ الروح الطيبة والروح الشريرة، وبالطبع تذهب الروح الشريرة إلى الجحيم فيقول سيد الجحيم "أيها السائرون بلا روح في دار الأحزان رؤوسكم منكسة من ثقل وهوان يا أعداء أوزير الطيب، هذا يوم الميزان إلى جهنم عني اغربوا فيها عن العيان، هنالك وادي البكاء، هنالك صرير الأسنان"، أما الروح النقية الطاهرة فتعترف اعترافًا يصلح أن يكون دستورًا للكوكب الكوني التعيس. فتقول الروح الطاهرة أمام المحكمة متمثلة في "ماعت" أي طريق الحق والاستقامة التي لا تعرف الاعوجاج: "ولاءً للحق والعدالة هاأنذا أمثل في المقام الطاهر في رحاب الأرباب المقدسين وعيناي تتمليان بالبهاء النوراني، أنا الآن أعاين الحق في كماله ولساني يلهج باسم ماعت الجميل، جئت هنا لأبوح بقولة الحق من أجل الحق، يداي لم تقترفا إثمًا تأذى له إنسيٌّ من البشر، أنا ما تجبرت يومًا على أهل بيتي ولا جرت خطاي ريح فساد على مكان مقدس، ما عرجت يومًا على مجالس السوء ولا خطت قدماي إلى أوكار الأدنياء، أنا ما أرهقت أجيرًا في عمل ولا جرح لساني كرامة خدم، راحتاي لم تلوثا بدم مهراق، ولا كنت للجرم طرفًا قريبًا أو بعيدًا، حافظت على طهارة بيوت الصلاة، قصبة واحدة لم أقطع إلى أرضي، ما طففت كيلاً ولا أنقصت في كفة الميزان. أنا ما كدرت على رضيع يأنس إلى صدر أمه في أمان، ولا عكرت يومًا على السائمة أو الرعيان. هاأنذا أعلن في محضر الإله طهري، نقيٌّ أنا نقيٌّ طهور، لقد عاينت نور رع وقت تمامه وتنسمت من نسيم سيدة الريح الطاهرة، أيتها الإلهة العادلة رحمة بي في رحاب ماعت إلهة الحق". وهناك مجموعة حِكَم عن الضمير المصري منها أمثال الحكيم آني والحكيم بتاح حتب مثل "لا تغتر بعلمك، ترفق ببسطاء العقول ولا تزدرينهم، إن كنت قد تعلمت شيئًا فأين أنت من المعرفة الكاملة".

ولنا وقفة مع ملحمة إيزيس وأوزوريس، وأتحدث هنا حول بكائية إيزيس على المظلوم أوزوريس، فعندما تساقطت دموع إيزيس على النيل ولمس دمع إيزيس نهر النيل فاض النيل في غير وقته احترامًا لدمع إيزيس:

إيزيس في حزنٍ شديدٍ تولول على الزوج الشهيد
حينًا في كفور الدلتا وأخرى في نجوع الصعيد
إيزيس متشحة في سواد تكفكف الدمع بمنديل الحداد
تضرب الشطآن في عويل وسهاد
أوزير أين أنت حبيبي أوزير لقد طال عليك الرقاد

وتمضي الأيام وتمضي السنون حتى تمتحن مصر امتحانًا قاسيًا على يد الفرس حتى أن أحمد شوقي قد خلد تلك الواقعة في رواية قمبيز؛ حيث أتى قمبيز بالفرعون وأجلسه بجانبه ومر من أمامهما موكب به أبناء فرعون يلبسون ألجمة حصان وعلى كلٍّ منهم فارس، كما مرر بنات فرعون السبايا، إلى أن شد انتباهه كهل يشحذ من الجمهور في الموكب فبكى الفرعون فقال له قمبيز: "ألم تر ابنك يلبس اللجام وفوق ظهره فارس وبنتك سبية ولا تبكي عليهما وتبكي الآن على الكهل؟" فأجابه فرعون: "عندما كنت ملكًا كان هذا جليسي فأنا أبكي رجلاً فقد عقله، أنت لا تعلم قسوة العزيز عندما يذل ويهان". لقد أهان قمبيز مصر إهانة شديدة.

وبسبب الصلة بين مصر واليونان أتى الكثير من علماء اليونان إلى مصر؛ مثل طاليس وأرشميدس وغيرهم من علماء الطب والفلك والهندسة حتى ينهلوا من مصر، وأذكر هنا أن أفلاطون نفسه ذهب إلى جامعة عين شمس وكان اسمها "أون" أو "هليوبوليس" في هذا الوقت وتخرج فيها بعد ثلاث عشرة سنة. كما تحدث هيرودوت في مقولات عديدة عن مصر حيث اعترف أنه لم ير على وجه الأرض شعبًا متدينًا كشعب مصر؛ فالإيمان يسري في عروق المصريين كما يسري الماء في نهر النيل والكهنة يحلقون شعر رؤوسهم كل يومين ويلبسون الملابس الكتانية النظيفة وينتعلون أحذية صنعت من نبات البردي ويغتسلون في الماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل، كما أن لسان المصريين لسانٌ عفيفٌ فهم لا يسبون أحدًا ولا يلعنون شيئًا البتة بل يكتفون في لحظات الغضب بالابتهال إلى الآلهة لتقتص لهم من شرور الآخرين.

يأتي بعد ذلك تلميذ أرسطو الإسكندر الأكبر والذي استمع لنصيحته عندما أمره باحترام بلاد نهر النيل عندما يذهب إليهم؛ فعندما أتى الإسكندر إلى مصر ذهب إلى مدينة منف وسجد وقدم

القرابين للآلهة المصرية، كما ذهب إلى معبد آمون بواحة سيوه وقال له الكاهن المصري عندما رآه يحترم الآلهة: "يا ابن فيليب لقد قبلك أمون له ابنًا". لقد بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية، كما أسس خلفاؤه البطالمة مكتبة الإسكندرية أو "الموسيون" أي متحف ربات الغناء والقيثارة والأدب والتاريخ والفلك، وهن بنات زيوس التسع؛ واحدة للشعر الملحمي، وأخرى للتاريخ، وأخرى للمزمار، وأخرى للتراجيديا، وأخرى للرقص، وأخرى للقيثارة، وأخرى للأناشيد المقدسة، والأخرى للفلك، وأخيرة للكوميديا.

في ذلك الوقت كان هناك رجلٌ يدعى مانيتون من سمنود، وهو أول من سجل تاريخ الأسر الفرعونية كاملة بالشكل المتبع لدراسة أسر الفراعنة حتى يومنا هذا، وهو التقسيم الذي يعتمد على التأريخ لثلاثين أسرة حاكمة. كما أذكر أيضًا إقليدس عالم الرياضة، وأرشميدس عالم الرياضة والفيزياء وما اكتشفه عن الكثافة النوعية، كذلك علماء النباتات والطب والهندسة وغيرها من العلوم التي ظهرت في مكتبة الإسكندرية. كما ظهر شخصان قدما فلسفة جديدة؛ وهي الفلسفة الأفلاطونية، أحدهما "أفلوطين" الذي قال: "أنا أتصور نفسي على درج روحاني له خمس درجات؛ على كل درجة منها أطهر من نفسي الحس الملعون؛ حس الغريزة وآخر الدرج أعاين النعمة الإلهية"، فقد خلط أفلوطين بين الصوفية الروحانية الشرقية والأفلاطونية القديمة. وانتهى البطالمة على يد أوكتافيانوس أغسطس الروماني الذي قضى على مارك أنطونيو، ثم انتحرت كليوباترا بعد ذلك.

وفي عهد أغسطس جاءت العائلة المقدسة إلى مصر؛ يوسف النجار والعذراء مريم والقابلة سالومي والطفل المعجزة السيد المسيح عليه السلام، وذلك بعد أن أراد هيرودس حاكم فلسطين أن يذبح جميع الأطفال عندما سمع عن ميلاد طفل معجزة، فأرسل الله سبحانه وتعالى ملاكه لينصح يوسف النجار بالسفر إلى مصر؛ وفي مصر علت صيحة جميلة ونذير خير لهذه الأمة: "مبارك شعبي مصر".

ثم انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: روما القديمة في الغرب وبيزنطة أو القسطنطينية في الشرق؛ حيث ورث البيزنطيون مصر وأذلّوا المصريين بالضرائب التي فرضت حتى على الموتى، هذا بجانب السخرة واحتكار التجارة والصناعة. وفي عهد الإمبراطور هرقل في القرن السابع أراد أن يفرض مذهبًا دينيًّا خاصًّا به على الكنيسة في الإسكندرية، ولكن رفضه المصريون وأطلقوا عليه اسم "مذهب الملك"، فأرسل لهم رجل دين يدعى "سيرس" ليقبض علي البطريرك المصري "بنيامين" ويقطع رأسه، ولكنه لم يعثر عليه فأمسك إخوته وألقاهم في البحر، وأثناء هروب

"بنيامين" والكهنة المصريين من الإسكندرية كانت جيوش الدولة الإسلامية الفتية تتقدم شرقًا وغربًا تقلم أظافر الأكاسرة في الشرق والقياصرة في الغرب لأنهم طالما أذلّوا القبائل العربية وامتصوا خيراتها وتجارتها، وكانت واقعة القادسية في الشرق ضد كسرى وواقعة اليرموك في الغرب ضد الروم.

وبعد ذلك صارت بلاد الشام وفلسطين للعرب، ووصل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الفاروق العادل رضي الله عنه بنفسه إلى أرض فلسطين حتى لا تراق نقطة دم واحدة بناءً على دعوة من بطريرك مدينة القدس (سوفرونيوس) سنة ٦٣٩ م، وفي هذا الوقت حان وقت صلاة الظهر وكان عمرو يتفقد كنيسة القيامة فسأله البطريرك أن يصلي فرفض أمير المؤمنين موضحًا أنه سيصلي في الخارج لأنه لا يعلم كيف يفسر هذا من يأتي بعده. ودخل أمير المؤمنين أرض السلام ليزيدها سلامًا وأصدر إلى أهلها عهدًا هو "العهد العمري" ونصه كما يلي:
"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أهل بيت المقدس من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها".

ووصلت أخبار الفتح العربي لفلسطين وترحيب بطريركها (سوفرونيوس) بأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى مسمع أهل مصر، كما وصلت سماحة أمير المؤمنين إلى مصر فتهامس بها الخاص والعام في أرض النيل فتطلع قبط مصر إلى من ينقذهم من الظلم البيزنطي، ويقول الشيخ تقي الدين أحمد المقريزي في القرن الرابع عشر في هذا الصدد إن سبعين ألفًا من الرهبان القبط خرجوا يحملون النواقيس والدفوف ترحيبًا بالقائد عمرو بن العاص عند مدينة الفرما، وهكذا أنقذ عمرو بن العاص والخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أهل مصر من قبضة الرومان والبيزنطيين التي استمرت حوالي ألف عام، وأرجع عمرو بن العاص البطريرك بنيامين إلى كرسيه واحترمه احترامًا شديدًا.

وهكذا سطعت على أرض النيل الكريم شمس فجرٍ جديد من السماحة والحرية والإخاء، وكان موقف عمرو بن العاص ترجمةً للآيات الكريمات ٨٢-٨٥ من سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾

لقد أعطت مصر للدنيا أكثر مما أخذت حضاريًّا وماديًّا، وليس في ماضينا شيء نتبرأ منه وليس في حاضرنا شيء نخجل منه؛ فالجد فرعوني أصيل والأب عربي نبيل والأم في الحالين هي ابنة النيل الكريم.

رامي الجمل:

نشكر الدكتور إسحاق عبيد على محاضرته الشيقة، ونفتح الباب للمداخلات والحوار.

فايزة صقر (أستاذ مساعد المصريات بجامعة الإسكندرية):

أود أن أوضح أن البطالمة أخذوا فكرة المكتبة من الفراعنة، وأن المصريين هم أصحاب المكتبة، وقد عرف المصريون المكتبات العامة والمكتبات الخاصة و"البير عنخ" كانت جزءًا لا يتجزأ من أي معبد سواء كان معبدًا محليًّا أو أي معبد في العاصمة، بل إن أصغر معبد وجد به أرشيفٌ أو سجلٌ. إذن، فقد أخذ البطالمة فكرة المكتبة من المصريين وكان يوجد في المعبد الربّات السبع أو التسع، كذلك فقد ارتبطت المكتبة عند البطالمة بالآلهة وهي الفكرة نفسها عند المصريين. ولقد ألقيت محاضرة على طلابي قرأت عليهم فيها الفصل ١٢٥ الذي ذكره الدكتور إسحاق عبيد وهو الفصل الخاص بالاعترافات السلبية والتي ضمت "لم أسرق، لم أكذب، لم ألوث أي ماء"، وهنا لم يذكر تلويث مياه النيل فقط بل ذكر عدم تلويث أي ماء سواء كان ماء النيل أو أي مياه أخرى غيره، فلم يعترض مسار أي ماء جارٍ أو يقم سدًّا أو عائقًا أمامه، وهذا ما قاله المصري القديم.

إسحاق عبيد:

أود أن أضيف معلومة؛ فإذا كان البطالمة قد أقاموا المكتبة باسم الربّات التسع فقد نقلوها في الأساس عن فكرة التاسوع المصري.

سعيد زلط:

ما هو رأي الدكتور إسحاق عبيد في محاولات سرقة تاريخنا العربي وتدميره من الفئات الحاقدة؟ كذلك أرجو تقديم تحليل حول معنى صورة الذات والآخر والمقصود بها فهي كلمات مبهمة شديدة التكرار في وقتنا الحالي.

إسحاق عبيد:

لقد وضحت أنه لولا الفتح العربي الإسلامي لمصر لظلّت حتى الآن ولاية رومانية، والحاقدون موجودون داخل مصر أو خارجها. أما عن الذات فهي كيف نرى أنفسنا قديمًا وحديثًا، وكيف يرانا الآخرون، وهي مثلما شرحت حول رؤية قمبيز والإسكندر والبطالمة وأوكتافيانوس أغسطس وغيرهم لمصر، وهناك أشخاص منصفون مثل هيرودوت واسترابون.

محمد عبد الغني (أستاذ بقسم الآثار – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

أود أولاً أن أرحب بالدكتور إسحاق عبيد، في الواقع، لقد قام الدكتور إسحاق عبيد بذكر بعض النقاط التي تمثل عناوين لمحاضرات؛ مثل "مصر ونبات البردي" عندما شبه مصر بنبات البردي وهي صورة عبقرية استمتعت بها خلال الندوة. كذلك الدكتور جمال حمدان ووصفه لمصر؛ فقد اخترت من كتبه فقرات معبرة إلى أبعد الحدود، منها الكلمة الجميلة "اوتكتونس" فهي تعني "من نبت الأرض ذاتها"؛ حيث إن الشعب المصري من طين الأرض وليس مجلوبًا عليها من أي مكان آخر، وهي كلمة عبقرية تدل على مدى أصالة المصريين ومدى تشبثهم بموطنهم. كذلك ما يتعلق بالمصري وترويض النيل الثائر والتقرب إلى حابي إله النيل؛ فمصر هبة المصريين وليست هبة النيل كما ذكر هيرودوت. كذلك تشبيه المصري بزهرة اللوتس وليس بتمساح النيل فهذه عبقرية في استخدام التشبيهات من جانب الدكتور إسحاق عبيد. أيضًا بقاء أفلاطون ويودكسس عالم الفلك الإغريقي الشهير في "أون" أو "هليوبوليس" لمدة ثلاثة عشر عامًا وليس ثلاثة أعوام، حاولا خلال هذه المدة أن يأخذا من الكهنة المصريين قدرًا من المعلومات حول علم الفلك وغيره من العلوم، وخرج يدوكسس بملاحظة مفادها أن هؤلاء الكهنة المصريين يتكتمون على أسرار علمهم ولا يعطون للأجانب إلا القشور؛ فبالرغم من مرور ثلاثة عشر عامًا على مكوثهم في أون لكنهم لم يحصلوا على ما يروي ظمأهم من العلم مع إدراكهم أن في جعبة الكهنة المصريين الكثير والكثير وأنهم لم ينالوا منهم إلا القشور.

كذلك زيارة الإسكندر الأكبر لمعبدي آمون وبتاح في منف وتبجيله للآلهة المصرية، فقد كان ذكيًّا فأدرك الوتر الحساس للمصريين ونجح في التقرب منهم وكسب ودهم لاسيما بعد حماقة قمبيز وحماقة الفرس ومطاردتهم للعقائد المصرية. كذلك مانيتون السمنودي المؤرخ العظيم وهو من كهنة أون، كهنة عين شمس، وهذا أيضًا تقدير للكهنة المصريين، فلم يكونوا كهنة طقوس وتعبد فقط بل كانوا كهنة علماء لهم باع طويل في كل فروع المعرفة.

إسلام السعيد رمضان:

هل الحقيقة التاريخية لجزيرة "أم الرشراش" هي كونها تنتسب إلى مصر أم إلى غيرها ؟

محمود سعيد عمران (أستاذ بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

كانت قرية "أم الرشراش" تابعة لمصر ولكن تم رسم حدود بين مصر وفلسطين قبل الانتداب فدخلت هذه القرية ضمن حدود فلسطين، وعندما أتى الانتداب الإنجليزي أبقى على القرية في فلسطين، ثم أخذها الإسرائيليون باعتبارها أرضًا فلسطينية.

يستخدم البعض مصطلحات مثل "فتح الشام وفتح مصر" أو "غزو الشام وغزو مصر"، وأنا أتبع منهجًا في هذا الموضوع يعتمد على استخدام كل المصطلحات الأجنبية حتى أستطيع أن أرد على من يسألني؛ فحينما أقول ﴿إنَّا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾ فلن يفهم السائل ما أقول، أستطيع أن أرد عليه بما كتب في كتب التاريخ في كل أوروبا عن (Barbarian Innovation)، وبالتالي كل من هو غريب عن أهل المنطقة سواء من حيث الجنس أو اللغة ودخل أرضًا فغزاها، وهذا هو المنهج المتبع في أوروبا. وسماه حرس الأندلس "الاسترداد" فعندما يدخل عمر بن الخطاب إلى بلاد الشام وهي أرض عربية بالتالي يصبح المصطلح المناسب هنا هو الاسترداد. وأنا أتمنى أن يستخدم هذا المصطلح بدلاً من الفتح أو الغزو؛ فكلمة استرداد تعني استرجاع حق، أما عن الغزو فالغازي هو غريب عن هذه الأرض، أما مصطلح الفتح فهو الدخول إلى أرضٍ محتلة وضرب المحتل وعدم التعامل مع أهل هذه الأرض فيكون الدخول إليها سلميًّا كما هو الحال في مصر ومكة.

صلاح سعد:

يوجد عندي خلط في استخدام ألفاظ "فرعون" و"ملك" و"إله"؛ فإلى ماذا تشير كل لفظة؟ أيضًا أتساءل عن سبب شهرة أسطورة إيزيس وأوزوريس عن غيرها من الأساطير، وما حقيقتها في الأصل؟ أخيرًا في عهد من مِن ملوك الفراعنة هرب المسيح عليه السلام إلى مصر؟ والسؤال نفسه بالنسبة لأحداث قصة سيدنا يوسف.

فايزة صقر (أستاذ مساعد المصريات بجامعة الإسكندرية):

كانت للملك المصري ألقابٌ محددة، وكانت صلته بالآلهة مسألة دينية وسياسية بحتة؛ فالإدارة السياسية كانت تستعين بالفكرة المقدسة للآلهة لتدعم شرعية اعتلاء الملك للعرش، فله شرعية اعتلاء العرش بعدة ألقاب ويجري في عروقه دماء ملكية وخاصة من جهة الأم حيث يجب أن تكون

الأم ملكية وفي بعض الأحيان حينما لا تكون الأم ملكية –مثلما حدث مع تحتمس الثالث– فإنه يتزوج من أميرة ملكية. وكانت ألقاب الملك ألقابًا عادية تسبق اسمه ومنها ابن رع، واللقب الحوري (حورس)، وحورس المنتصر، واللقب الميسوبيتي ويعتبر رمزًا للشمال والجنوب، واللقب النبتي وهو رمز إلى إلهة الشمال وإلهة الجنوب.

أما بالنسبة للقبائل البدوية التي كانت تتسلل إلى مصر عبر سيناء وتستقر في الوادي أو الدلتا فهي قصة معروفة في الحضارة المصرية القديمة؛ ففي منطقة المنيا توجد الكثير من النصوص في مقابر قبائل كنعانية كانت تأتي إلى مصر للتجارة، وربما كانت قبيلة سيدنا يوسف إحداها، ولكن لا يوجد ما يشير إلى انتمائها إلى عصر أو ملك بعينه في أي من النصوص المصرية، وعند دراستنا للتاريخ والآثار والحضارة فنحن نعتمد على النص الأثري.

عادل إبراهيم:

ردًّا على الدكتور عمران بخصوص قرية "أم الرشراش"؛ فقد حضرت عدة ندوات كان بها مسئولون في الدولة وطرحت سؤالاً حول معنى أن نترك جزءًا من الدولة وهو "أم الرشراش" ولا نطالب به، وجاء الرد على تساؤلي بأن "أم الرشراش" ليست قرية مصرية بل هي أرض فلسطينية. أيضًا سمعت من الدكتور عمرو السباخي هجومًا على الحضارة المصرية واصفًا إياها بأنها حضارة بناء معابد ومقابر وأن الحضارة الحقيقية هي حضارة الإغريق؛ فهي حضارة فكر وفلسفة ورياضيات وتخيلات، وأريد أن أسمع ردًّا من الدكتور إسحاق عبيد على هذا الكلام.

إسحاق عبيد:

لقد ذكرت في المحاضرة اعتراف الإغريق أنفسهم أنهم أتوا إلى مكتبة الإسكندرية وأنتجوا إنتاجهم من العلوم والطب والفلك والنباتات في الإسكندرية، كما أن الآلهة اليونانية التسع وزيوس نفسه وغيرهم منقولون حرفيًّا عن الآلهة المصرية؛ فعلى سبيل المثال أفروديت إلهة الجمال عند الإغريق هي حتحور أو إيزيس؛ فاليونان تلاميذ للمصريين والرومان تلاميذ لليونان وأوروبا تلميذة لليونان والرومان وبالتالي فنحن أصحاب فضل على كل أوروبا حضاريًّا، ومن يأتي إلى مصر فاعلاً يصبح مفعولاً به حضاريًّا.

رامي الجمل:

أريد أن أوضح نقطة؛ فالدكتور عمران متخصص وعالم، وحين يتحدث عن قضية "أم الرشراش" فهو يقوم بتوصيفها توصيفًا علميًّا، فهناك فرق بين التوصيف العلمي والشعور الوطني حيث إن الكل لديه شعور وطني، ولكن العاطفة شيء والعلم شيء آخر.

عباس فاروق:

أعتقد أننا نملك الدليل على اعتراف اليونانيين بحضارتنا؛ فضمن الشعراء المعاصرين يوجد الشاعر كفافيس وتعتبر "إيثاكا" من أهم قصائده وهى جزيرة أوديسيوس بطل الملحمة الثانية لهوميروس الذي قضى عمره في السفر طيلة عشر سنوات في حصار طروادة وعشر سنوات أخرى في عودته، فتصور كفافيس نفسه مثل أوديسيوس بطل الملحمة لأنه كان أعزب في السبعين من عمره وقضى حياته كلها كرحالة فيقول: "إذا أبحر الإنسان إلى إيثاكا فيجب عليه أن يأخذ معه الكثير من المجوهرات والعقيق والعطور، وإذا وصل إلى إيثاكا فوجدها فقيرة فهي لم تخدعه لأنه عندما يصبح حكيمًا فإنه يتعلم ما هي إيثاكا". وكان للشاعر اليوناني بُعد شخصيّ لأنه كان من عائلة غنية وتعلم الكثير من اللغات ودرس في إنجلترا، كما كان سكندري المولد وعندما أصبح فقيرًا رجع إلى الإسكندرية وعمل بشركة مياه الإسكندرية، وتوازي هذه القصة تمامًا ما تقدمه مصر لشعبها، فعلى بالرغم من فقره كانت الحكمة بجانبه في مصر.

متحدثة لم تذكر اسمها:

أرغب في سماع القليل عن الهكسوس؛ لأنه على الرغم من محاولتهم للتقرب من المصريين وأن يتلقبوا بألقابهم ويتزينوا بزيهم إلا أن المصريين خلال المائة سنة التي مكث فيها الهكسوس في مصر كانوا يحتقرونهم احتقارًا شديدًا بعكس وجود الإسكندر الأكبر؛ فنتيجة احترامه للآلهة احترمه المصريون احترامًا شديدًا.

فايزة صقر (أستاذ مساعد المصريات بجامعة الإسكندرية):

من الملاحظ وجود مؤشر رائع لتعطش الناس للحضارة المصرية القديمة؛ فقد وجد خطأ عام في الثقافة المصرية ينشر اعتقادًا بأن الحضارة والعلم والمعرفة بدأت من عصر الإغريق، وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق، فقد أخذ الإغريق الكثير من معارفهم من المصريين. أما عن الهكسوس، فهم عنصر محتل استقر في مصر حتى حدود المنيا لمدة مائة سنة، جاءوا من منطقة فلسطين من هجرات هندو-أوروبية من منتصف الكرة الشمالي، لذا فهم شعوب بربرية كانت تبحث عن الكلأ والماء

والمراكز الحضارية. وتعني كلمة هكسوس "حكام الشعوب الأجنبية" وذلك وفقًا لترجمة "جاردنر" وليس "الملوك الرعاة" مثلما قال "مانيتون"، فهم عنصر أجنبي محتل لم يتعامل مع المصريين باحترام بل احتقروا المصريين. وأذكر القصة الشهيرة لملك الهكسوس "أبوفيس" حين بعث إلى سقنن رع والد أحمس الأول وأخبره أن التماسيح التي توجد في البحيرة في طيبة تزعجه وهو جالس في أواريس في الزقازيق، في نوع من الاستهزاء وعدم الاحترام للمصريين، وبالتالي حرص المصريون على طردهم من مصر، وهو ما حدث مع المحتل اليوناني على يد البطالمة فقد نظروا للمصريين على أنهم أقل من الرقيق، بل وقسّم المجتمع اليوناني القديم المجتمع السكندري إلى ثلاث طبقات آخرها طبقة الرقيق و لم يكن المصريون من بين هذه الطبقات.

محمد عبد الغني (أستاذ بقسم الآثار – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

من يقول إن الحضارة الإغريقية أسمى أو أرقى من الحضارة المصرية فهو خاطئ بلا جدال، ورغم أنني متخصص في الحضارة اليونانية والرومانية لكن الفرق البسيط هو أن قاعدة الحضارة المصرية العريضة ضمت وراثية المهن أما العلم بكافة فروعه فقد كان في صدور الكهنة وفي عقولهم وكان منهم الطبيب والمهندس والكيميائي، و لم يكونوا كهنة للطقوس والشعائر فقط وإنما كانوا علماء في كافة التخصصات. وبالتالي كان هناك نوع من الاحتكار النسبي للعلم؛ فكان العلم المصري الرائع محتفظا به في صدور الكهنة و لم يدون منه إلا أقل القليل وهذا هو الخطأ الأكبر. بينما دوَّن الإغريق كل ما لديهم بحرية بالغة ولبرالية إنشائية إن جاز التعبير في الكتابة، وبالتالي وصلنا الكثير مما كتب الإغريق. وبالطبع هناك دليل ساطع على عظمة العلم المصري مثل علم تحنيط المومياوات المصرية؛ فرغم التقدم العلمي المذهل الذي وصلنا إليه الآن إلا أن العلماء حتى الآن لم يتمكنوا من الوصول إلى سر التحنيط المصري، كذلك الهندسة والفلك وتدلل عليهما الأهرامات، والتي مازلنا لا نعلم عن عشرات النظريات الهندسية المطبقة في بنائها. إذًا لا يستطيع أحد أن يزعم أن الحضارة الإغريقية أعظم من الحضارة المصرية أو أكثر رقيًّا منها.

أما بالنسبة لما ذكرته الدكتورة فايزة صقر حول نظرة المحتلين للمصريين بنظرة أقل من العبيد فهذه مجافاة للحقيقة التاريخية؛ لأنه على الرغم من أن المصريين كانوا في نهاية السلم الاجتماعي إلا أنه كان هناك فرق شاسع بين العبد في الزمن القديم وبين المصري، فالعبد نوع من الملكية أو المتاع لكن المصريين كانوا في قاع الهرم الاجتماعي رغم أنهم أصحاب البلاد، ولكن فُتحت مصر ووُجدت سياسة تجمع بين الترغيب والترهيب. إذًا، عندما تم احتلال مصر كان من الطبيعي أن يكون المصريون في قاع المجتمع فقد قاوم المصريون وصمدوا كثيرًا لكنهم لم يكونوا أبدًا عبيدًا لأي مستعمر.

رامي الجمل:

في نهاية الندوة، نشكر الدكتور إسحاق عبيد على محاضرته الممتعة، كما نشكر السادة الحضور والأساتذة الأجلاء على مشاركتهم معنا ومداخلتهم القيمة التي ساهمت في إثراء الندوة، وإلى لقاء قادم في منتدى الحوار.